«من هو الله؟»: حفريّات في التوحيد

حميد زناز ❖

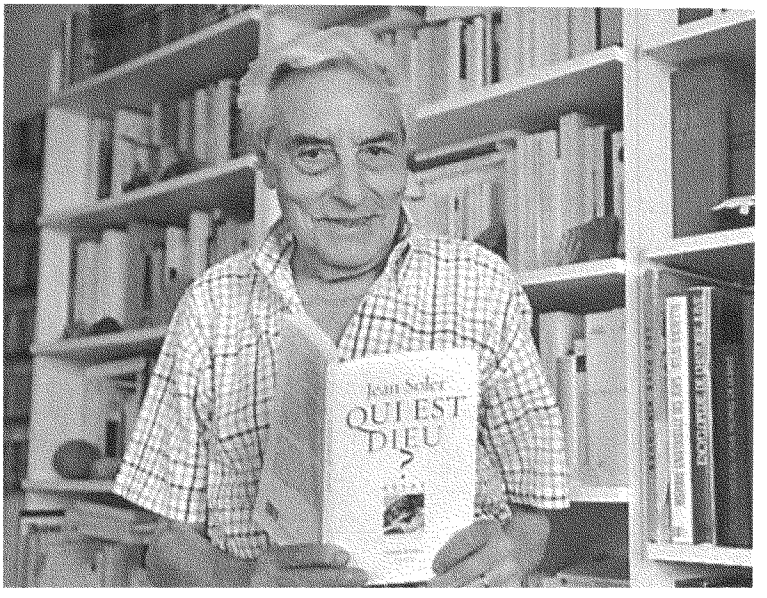

كثيـرًا ما تُطمس في الغرب أعمالٌ علميّةٌ جريئة لباحثيـن تناولوا الديانـات التوحيديّة بعيدًا عن المألوف السـائد. ولا تفسـير لهذا التعتيم سوى غـرق هذا العالم في بحر الإيديولوجيا اليهوديّة ـ المسـيحيّة، وعجـزه المزمن عـن التحرر من أساطيرها المذلّة للعقل.

ينتمي جون سـولر إلـى مفكّرين قلائل درسـوا الظاهـرة الدينيّـة دراسـة عقلانيّـة، وحلّلـوا «الكتبَ المقدّسـةَ» تحليلًا تاريخيًّا صـارمًا. لم يتعامل معها في وصـفها كلامًا منزلًا، بل كأدب إنسـانيّ لا غير. أمضـى حياته قارئًـا ومترجمًا ومحلّلًا وممحّصًا للديانات التوحيديّة في لغاتها الأصـليّة، فأثمرتْ جهودُه المتواصلة منذ سنين أعمـالًا مركّـزةً دقيقـةً جمعها كتابُه الضـخم، **بحثًـا عـن أصـول الله الواحـد**، وهو فـي ثلاثة أجـزاء: **اختـلاق التوحيـد** (٢٠٠٢)، **وقانون موسـى** (٢٠٠٣)، **والحيـاة و المـوت فـي التـوراة** (٢٠٠٤). وفـي العام ٢٠٠٩ عرض حصـيلة ما سـبق من تنقيب تحت عنوان: **عنف الديانـات التوحيديّة**. ومن عناوين هذه المؤلّفات فتح سولر ملفّات حسّاسـة، وقدّم فرضيّاتٍ معاكسـةً للوعي السائد. فنفرت الجامعةُ منه، ورفضـتْ دُورُ النشر المهيمنة على سـوق الكتاب مخطوطاتِه، وتجنّبتْه وسائلُ الإعلام المتشدّقة بالحريّة والتعدّد الفكريّ.

فـي **مَـن هـو الله؟**[1] لخّص سـولر في ١٢٠ صـفحة مكثّفـة مجملَ النتائج التي توصّـل إليها طوال حياته العلميّة. يسـتمتع القارئ معه أو يقشـعرّ بدنُه وهو يَهدم، على مرّ الصفحات، الأساطيرَ اليهوديّة، ومعها ضمنًا كلَّ ما تولّد من أفكار أصبحتْ لاحقًا ـ وبفعل التكرار ـ مسلّماتٍ مسيحيّةً وإسلاميّةً.

يركّز سـولر في هذا النص على تعرية مغالطات شائعة حول التوراة وإله التـوراة، الذي لا يعتبره ربَّ الديانـات التوحيديّة الثلاث وإنّما واحدًا من بين آخرين يحمل اسـم يهوه، ومصـمَّمًا ليكون ربًّا قوميًّا لليهود وحدهم:

. التوراة ليسـت أقدمَ من النصوص الفلسـفيّة الأساسيّة، ولم تلهم الفلاسـفةَ قطّ، إذ هي «معاصـرة في معظمها لتسـاؤلات سـقراط وأفلاطـون ومحاوراتهما. لقد عُدّلتْ وأُكملـتْ فيما بعد، بل هي في جـزء كبير منها عملٌ اسـتهلانيّ، أيْ ينتمي إلـى الثقافة الإغريقيّة بعد الإسـكندر الأكبر» (ص ١٢). و يقول سولر بالحرف الواحد إنّ التوراة «كتاب مثل الكتب الأخرى، وهو مسـاوٍ لـ **الإلياذة والأوديسة**» (ص ٢٧).

ـ مـن الخطإ اعتبـارُ التوراة أولَ مـن جاء بفكرة الإلـه الواحد في تاريخ الإنسـانيّة. فالله اليهوديّ واحدٌ فحسب من بين آلهة القدماء الكثيرة؛ وهو إلهٌ قوميّ يعلن أنه سـيكون وفيًّا لشـعبه إنْ كان شـعبُه وفيًّا له فقط. التوحيد اليهوديّ تركيبٌ يعود إلى القرن الخامس قبل العصر الشائع فقط.

ـ لـم تكن التوراة هي التي ابتدعتْ أخلاقًا كونيّة. فتعاليمها لا تهتمّ بالكونيّ أو بالإنسـانيّة، وإنّما بالقبيلة، وبالمحلّيّ الذي يجب ضمانُ وجـوده وديمومته وتماسـكه (ص ٣٢). وحبّ الجار فـي التوراة لا يتعلّق سوى بالنظير المشابه، العبريّ.

ـ مـن الخطأ الاعتقاد أنّ الرسـل هم مَن رَوّحـن العبادَة العبرانيّة.

❖ كاتب ومترجم من الجزائر، من مؤلفاته: **المعنى و الغضب، مدخل إلى فلسفة سيوران، فصل الكلام في الرد على أهل الظلام.**

(١) Jean Soler, **Qui est Dieu?** Editions de Fallois, Paris, 2012.

فبالنسبة إلى ناس التوراة لا حياة بعد الموت، وفكرة «البعث» أُخذتْ من الفرس وظهرتْ في القرن الثاني قبل المسيح. أما فكرة «خلود الروح» فغائبة من التوراة وقد سُرقت من اليونانيين. ولم تذكر التوراة الحياة الروحيّة قط (ص٢١).

ـ نشيد الأنشاد لا يمجّد الحبَّ المتبادل بين الربّ والشعب اليهوديّ، وإنما هو قصيدٌ غنائيّ يبدأ على لسان الفتاة بالآتي: «فليقبّلْني قبلاتٍ بفمه. ملامساتك أشهى من الخمر... حبيبي هو لي كسلّة تمر، بين نهديَّ يقضي ليلته.» لا يرى سولر أيّ «تشفير ربّانيّ» في هذا النشيد، ولذلك لم ينجح المفسّرون اليهود والمسيحيون في تحويل هذه الأبيات التي تتغنّى بالشباب والجنسانيّة السعيدة إلى حكاية دينيّة صوفيّة (ص٢٣).

ـ لا شيء يثبت أنّ الله في التوراة كلّف اليهودَ بخدمة الإنسانيّة. فلقد مجّد نقاءَهم، ومنع امتزاجهم بغيرهم؛ ومن هنا تلك الممنوعات والنواهي الغذائيّة، والقوانين والقواعد. لقد أراد هذا الربُّ التفرقة والتمييز، ومنع إمكانيّة تبديل الدين، وفكرة العهود مع الأمم الأجنبيّة. هذا الله، إذن، إله إثنيّ وقوميّ وذو هويّة محدّدة.

ـ في الأصل، كان العبرانيون يؤمنون بآلهةٍ تولد وتعيش وتموت. كانت مختلفة ومتعدّدة، ولم يكن العبرانيُّ موحّدًا. وكما كان شائعًا بين الآلهة القوميين في ذلك الوقت، فقد كان لربّهم يهوه امرأةٌ، هي أشيرا، ملكةُ السماء. وكانوا يقدّمون إليها القرابين. وقد عثر علماءُ الآثار على جملة «يهوه وأشيرته» منقوشةً على الحجر (ص ١٧).

ـ الله الواحد الأحد يولد حين يقتضي الأمرُ تبريرَ سبب توقّف الله القوميّ أو عجزه عن نصرة شعبه وحمايته. وقد فرض التوحيدُ نفسه في النصف الثاني من القرن الرابع، وذلك لظروفٍ تاريخيّةٍ بحتة يسردها سولر بالتفصيل ـ ابتداءً من الخروج من مصر وتكوين المملكة، ثم إنشاء مملكة السامرة المستقلة وضمّها من طرف الأشوريين في القرن الثامن وتهجير الشعب، وصولًا إلى تهديم أورشليم من طرف الملك البابليّ نابوشودونوسور في بداية القرن السادس. وإذ يفحص سولر شهادة ميلاد الله الأحد، يصل إلى أنّ اليهود اتّخذوا من إله الفرس ربًّا لهم بغية الفوز بفضائله لأنّه يكافئ هذا الشعب أو ذاك بحسب جدارته (ص٧١). وهكذا توقفوا عن تسمية إلههم «يهوه» وأسموْه الرب، المولى (ص٣٠). ومن ثم أعادوا كتابة الفصل الاول من سفر التكوين (ص٤٧). لكنهم حين أحسّوا بخطر الانقراض، بحثوا عن الخلاص في النصّ المكتوب، واختلقوا موسى النبي الذي يكتب التوراة رغم أنه لا يعرف الكتابة إذ إنّ العبرانيين لم يبدؤوا كتابة لغتهم إلا ابتداء من القرن الرابع أو السابع ، على ما يكتب سولر. ومن هنا جسّدوا هويتهم في التوراة، وبذلك أصبحوا «شعب الكتاب» أو «الكتابيين» (ص٧٣).

ـ شيئًا فشيئًا تحوّل هذا الله الواحد إلى إلهٍ منتقم، غيور، محارب، وكارهٍ للنساء. ويصل سولر إلى أطروحةٍ يربط فيها بين التوحيد والعنف، لأنّ التوحيد ببساطة يعني «عدم وجود آلهة أخرى.» وفي مرحلة متأخّرة تحوّل الإله الواحد إلى سلاح حرب لتمكين الشعب اليهوديّ من الاستمرار و لو على حساب الشعوب الأخرى. ولئن أوصى يهوه بأن «لا تقتلْ أبدًا،» فتلك وصيّة قبليّة تخصّ الشعبَ اليهوديّ فقط لا الإنسانيّة كلها (ص٧٩). نقرأ في سفر الخروج أنّ ٣٠٠٠ شخص قُتلوا بأمر يهوه، ولهذا السبب يُطلق عليه في التوراة «يهوه الحروب» (ص١٣). وهو يدعّم رأيَه بقول سبينوزا إنّ القوانين التي أوحى الله بها إلى موسى لم تكن سوى تشريع خاصّ لدولة العبرانيين؛ أيّ إنها لا تلزم كلّ الشعوب، وليست كونيّة (ص١٩). كما يشير المؤلّف إلى الإبادة الجماعيّة التي ارتكبها اليهودُ في حقّ الكنعانيين، ويذهب إلى حدّ وصفها بالتطهير العرقيّ. وهو يذكّر أنّ كتاب يشوع تحدّث عن تهديم قرابة ثلاثين حاضرة، متسائلًا ما إذا لم يكن اليهود هم أول من ابتكر الإبادة الجماعيّة وأدخلها إلى تاريخ الأدب العالميّ، ومؤكّدًا أنّ لهذا الأمر دلالة في ما يتعلّق بنزوع اليهود إلى ما نسميه اليوم تطرّفًا.

ـ تبقى كبرى الكبائر التي ارتكبها صاحبُنا في نظر المتلاعبين بالعقول في عالم اليوم، هي فكرته حول المحرقة اليهوديّة. فهو لا يعتبرها حدثًا فريدًا مطلقًا يتجاوز الإدراك البشريّ. إنها حدث تاريخيّ، لا أسطوري. و كلّ ما عدا ذلك جهدٌ بائسٌ لتثبيت الفكرة القائلة بأنّ الله فضّل الشعبَ اليهوديّ مهما كان الثمن.

❖ ❖ ❖

في هذا الكتاب انحاز سولر إلى الحقيقة التي تقلق، ولم يجرِ وراء الأوهام المطمْئنة، بل سرد تاريخ «الله» انطلاقًا من التراكم المعرفيّ لا غير.

لقد أعلن سولر حربًا علميّةً ضدّ الديانات التوحيديّة لا بهدف العودة إلى تعدّد الآلهة، وإنّما بغية الخروج من أسر النظرة اليهوديّة ـ المسيحيّة التي تسيطر منذ ألفيّتيْن، والدخول في عهدٍ جديدٍ يخفّ فيه التعصّبُ ويتخلّص فيه الناسُ من الشعور بالإثم المجانيّ ومن فكرة الحرام. وفي انتظار نهضة جديدة، لا سبيل بالنسبة إلى سولر سوى انتهاج الشكّ العقلانيّ في مواجهة اليقين الدينيّ، وإنْ كنّا نعلم أنّ الصراع بين الحقائق الثابتة والعماء الطوعي سيدوم عشريّات أخرى (ص٧٨).

بدأ جون سولر حياته المهنيّة في ميدان التربية والتعليم. فعمل أستاذًا للغات الفرنسيّة واليونانيّة واللاتينية في ثانوية البليدة (الجزائر) في إطار تأديته للخدمة العسكريّة (١٩٥٩-١٩٦١)، وكذلك في الثانويّة الدوليّة بفونتان بلو (فرنسا ١٩٦١ - ١٩٦٤). ترك التعليم والتحق بوزارة الخارجيّة، ليبدأ العمل الدبلوماسيّ - الثقافيّ في عدّة سفارات فرنسيّة عبر العالم: بولونيا (١٩٦٥ - ١٩٦٨)، الكيان الصهيونيّ، (١٩٦٨ - ١٩٧٣)، إيران (١٩٧٣ - ١٩٧٧) بلجيكا (١٩٧٧ - ١٩٨١)، وليعود ثانية إلى «إسرائيل» مستشارًا ثقافيًّا في السفارة الفرنسيّة (١٩٨٩ - ١٩٩٣). ترك العمل الرسمي ابتداء من ١٩٩٣ لينعزل بموطنه الأول كاتالونيا وليبدأ في تحرير ما تراكم لديه من معطيات و أفكار منذ سنين.